مظاهر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم

من خلال

الرحلة الحجازية وقصيدة المديح

Appearances of Glorifying of the Messenger, may God bless him and grant him peace Through the Hijazi journey and the poem of praise

براء بن حسن الوراكلي

باحث في الأدب المغربي الأندلسي

تطوان – المغرب

ملخص:

الرحلة الحجازية كانت ولا زالت رافدا من روافد المعرفة، ذلك بما حوته من معلومات علمية أدبية اجتماعية قيمة، فكل باحث يجد بغيته في ذلك النص الرحلي المفعم بالحياة المتجددة على مر الزمان، ولعل سبب ذلك عائد إلى أن جل الرحالة كانوا يتفننون في نصهم الرحلي بذكر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وتعداد مناقبه وآثاره والصلاة والسلام عليه نثرا ونظما، وبذلك تروى النصوص وتسري في سطورها الحياة التي تبقيها على مر الدهور؛ أرق من الماء وأصفى من الهواء، ببركة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد تتبعت تلك النصوص وجمعت منها ما يتعلق بموضوعنا المعنون بـ: مظاهر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال الرحلة الحجازية وقصيدة المديح. والموضوع في مجمله بيان لمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم في قلوب المسلمين كافة، والمغاربة والأندلسيين خاصة، الذين كانت لوعة اشتياقهم لا تتم إلا بزيارة قبره، والتبرك بمكان ولادته، وإمتاع النظر بالوقوف على آثاره، وري النفس بذكر مناقبه وشمائله صلى الله عليه وسلم، ومرد اهتمام المغاربة والأندلسيين بهذا الفن من فنون القول بُعد الشُّقة بين المشرق والمغرب، وما تعتري الرحلة من مهالك ومفازات، حتى ينعم الرحَّالة برحلته، ويفوز بالوقوف على تلكم الآثار النبوية السَنية، ويهنأ بطيب العيش بمجاورته خير البرية صلى الله عليه وسلم.

في كل مرحلة من مراحل الرحلة المحفوفة بالشدة والكرب سواء في البحر أو في البر، كان الرحالة يذكر ناظما أو ناثرا النبي صلى الله عليه وسلم سائلا الله أن يهون عليه وعثاء السفر ويطوي عنه بعده.

وقد كانت للرحالة مواقف يستغلها لذكر النبي صلى الله عليه وسلم حاثا راحلته على الإسراع إلى طيبة الطيبة أو حين التملي بطلعة مشارف المدينة المنورة، أو حين يروي ظمأه بالوقوف على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، كل ذلك وغيره كان يقدح زند قرائح الشعراء لنظم قصيد المديح في الجناب النبوي.

الكلمات المفتاحية: الرحلة الحجازية، القيمة العلمية، القيمة الأدبية، قصيدة المديح النبوي، مظاهر التعظيم.

Summary:

The Hijaz journey was and still is a tributary of knowledge, with its valuable scientific, literary and social information. Every researcher finds his purpose in that nomadic text full of renewed life over time, and perhaps the reason for this is due to the fact that most of the travelers were mastering their nomadic text by remembrance of the beloved The Prophet, may God's prayers and peace be upon him, enumerate his virtues and effects, and may the prayers and peace be upon him in prose and arrangement, and thus the texts are narrated and the life in their lines that preserves them throughout the ages; Thinner than water and purer than air, with the blessing of the master of creation, Muhammad, may God bless him and grant him peace.

I traced these texts and collected from them what is related to our topic entitled: Aspects of glorifying the Messenger, may God bless him and grant him peace, through the Hijaz journey and a poem of praise. The topic in its entirety is a statement of the status of the Messenger, may God's prayers and peace be upon him, in the hearts of all Muslims, and Moroccans and Andalusians in particular, whose longing was not complete except by visiting his grave, seeking blessings at the place of his birth, and enjoying looking at his traces, and irrigating the soul by mentioning his virtues and merits, may God's prayers and peace be upon him, and Murd. The interest of Moroccans and Andalusians in this art of saying after the apartment between the East and the West, and the perils and surprises that the journey encounters, so that the travelers can enjoy their journey, and win by standing on those Sunni prophetic monuments, and enjoy the goodness of living next to it, the best of the wilderness, may God's prayers and peace be upon him.

At each stage of the journey fraught with hardship and distress, whether at sea or on land, the traveler would remember the Prophet, may God bless him and grant him peace, asking God to make it easy for him and the hardships of travel and fold after him.

The travelers had situations that he exploited to remember the Prophet, may God bless him and grant him peace, urging his camel to hurry to the goodness of goodness, or when he was dictated by the outskirts of Medina, or when he quenched his thirst by standing at the grave of the Messenger, may God's prayers and peace be upon him, all of that and others used to slander the poets' poems to compose poems of praise In the Prophet's sanctity.

Key words: the Hijazi journey, the scientific value, the literary value, the prophetic praise poem, Appearances of Glorifying.

مدخل:

إن الرحلة الحجازية ضرب من ضروب الرحلات التي برع فيها المغاربة فأجادوا وأفادوا أيما إفادة، والرحلة جنس من أجناس الأدب المتبلور بالتاريخ، والرحلة متنوعة المقاصد نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

الرحلة الحجازية؛

والرحلة السفارية،

والرحلة السياسية،

والرحلة الرسمية،

والرحلة العامة،

وهناك من أضاف الرحلة الدراسية أو العلمية، والرحلة الاستكشافية، والرحلة الصوفية،

وهي عند الأستاذ محمد الفاسي رحمه الله خمسة عشر نوعا.

وقد قص علينا القرآن الكريم عددا من رحلات الأنبياء والرسل والصالحين لأجل الدعوة إلى الله حينا، وللخروج من دار الكفر والضلال حينا آخر، وإذا نظرنا في تلك الآيات الكريمة التي قصت علينا قصص الرحلات وتجولت بنا بين أقوام وحضارات، ألفينا تلك الرحلات متعددة المقاصد؛ منها ما هو أمر الله سبحانه وتعالى لعباده بالقيام بالرحلة للوقوف على أثر من درس من الأمم السابقة يقول تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1]

ومنها آيات تأمر المسلمين بالرحلة لطلب العلم والنهل منه، سواء العلم الشرعي كما نصت الآية في قوله تعالى: [2]

أو العلم الدنيوي كما يدل على ذلك الحديث الشريف: {اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم. إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب}[3] وكذلك الرحلة السفارية فنلمس من ذكر الله تعالى لقصة سيدنا سلميان مع الملكة بلقيس حين بعثت إليه بهدية قصد الاطلاع على قوة جنوده في قوله تعالى:(**إني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون**)[4] فيمكننا أن ندرج هذه الرحلة التي قام بها أصحاب بلقيس ضمن الرحلات السفارية.

وتبقى رحلة الحج الرحلة الكبرى الذي يمني كل مسلم بها نفسه؛ فالحج ركن من أركان الإسلام وقد أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأذان في الناس بالحج في قوله تعالى: [5].

ثم لبى الدعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فحج حجة سميت بحجة الوداع. لذلك كان المسلمون يلبون دعوة الله سبحانه وتعالى بالحج إلى بيته المبارك، وزيارة قبر نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم.

وقد كان بعد المسافة بين المشرق والمغرب داعيا لحرص المغاربة والأندلسيين على تدوين كل ما يشاهدونه أو يسمعونه، خلال رحلاتهم التي كانت تستغرق في كثير من الأحيان سنوات عديدة، وقد ينتهي بهم المطاف إلى الاستقرار في بلد من بلاد المسلمين، ومن خلال ما دون في تلكم الرحلات وصل إلينا كثير من الشواهد والإفادات ما كان لها أن تُعرف إلا من خلال ما حررته أيادي أولئك المغاربة ونقلته إلى الجناح الآخر من دار الإسلام[6]، ولعل من أهم ما وصلنا من نصوص تلكم الرحلات أو بعض نصوصها:

1- "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" لابن جبير الكناني الأندلسي. (ت:614هـ 1217م).
2- "النفحة المسكية في الرحلة المكية" لابن سعيد المغربي علي بن موسى (ت:685هـ 1286م).
3- "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة" لابن رشيد السبتي.(ت:721هـ 1321م).
4- "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لمحمد بن عبد الله ابن بطوطة.(ت:779هـ 1377م).
5- "ماء الموائد" لأبي سالم العياشي (ت:1090هـ 1679م).

كما أن هناك من النصوص التي لم يصلنا منها شيء نذكر منها:

6- رحلة لمحمد بن عبد الله الولاتي الشهير بمولاي الشريف (ت:1101هـ 1689م) ذكرها صاحب الإعلام ج5 ص48

وممن دون رحلته في العصر الحديث أذكر على سبيل التمثيل لا الحصر:

1- المعارج المرقية في الرحلة المشرقية" لأبي عبد الله محمد بن علي الرافعي التطواني. ذكرها الأستاذ داود في تاريخ تطوان. وخصها الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي ببحث مستفيض سماه: "رحلة حاج تطواني" نشر في كتاب شذرات تطوانية[7].
2- "الرحلة المكية" للفقيه العلامة أحمد الرهوني.
3- "مواصلة السير بالسرى إلى طيبة الطيبة وأم القرى" للعلامة الأستاذ محمد الأمين بوخبزة. ت: 1441هـ 2020م
4- " مشاهدات وملاحظات واقتراحات حول موسم حج 1411هـ" للأستاذ الفقيه محمد المنتصر الريسوني ت: 1421هـ 2000م.

وقد تناول عدد من الباحثين من مشارق الأرض ومغاربها هذه الرحلات بالدرس والتحقيق، واستخلصوا منها عددا من الفوائد التي كانت في طي العدم لو لم تدون.

ونذكر من هؤلاء الباحثين من المغاربة العلامة المؤرخ الأستاذ عبد الهادي التازي في كتابه الموسوم: رحلة الرحلات، مكة في مئة رحلة ورحلة.

ومن المشارقة الأستاذة عواطف نواب التي قدمت بحث الماجستير في جامعة أم القرى بمكة المكرمةبعنوان "الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين".

مفهوم الرحلة لغة:

الرحلة لغة هي حركة انتقال لشخص أو أشخاص من مكان إلى مكان آخر؛ ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس:"رحل: الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مُضي في سفر. يقال: رحل يرحل رحلة [...]. والرحلة : الارتحال [...]. ورَحَّله، إذا أَظْعَنَه من مكانه"[8]، وعند ابن منظور :"رحل الرجل؛ إذا سار، ورجل رَحول، وقوم رُحّل؛ أي يرتحلون كثيرا. ورجل رحَّال: عالم بذلك ومجيد له [...] والترحل والارتحال: الانتقال. والرّحلة: اسم للارتحال. وقال بعضهم: الرِّحلة: الارتحال، والرُّحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"[9].

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي:"ارتحل البعير: سار ومضى وانتقل القوم عن المكان: كتَرَحَّلُوا. والاسم: الرِّحلة والرُّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال، وبالضم: الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة"[10].وتكاد المعاجم الأخرى تكرر المعنى نفسه.

لا شك أن هؤلاء الرحالين كما كانت اهتماماتهم وملاحظاتهم مختلفة، كانت أدواتهم وحظوظهم المعرفية متباينة أيضا، مما أضفى على رحلاتهم قيمة علمية وأخرى أدبية:

القيمة العلمية للرحلة:

إن القيمة العلمية لأي رحلة تتجلى في:

أولا: النص الذي "أورده هؤلاء الرحالون في مذكراتهم يمكن أن يأخذ سبيله إلى عالم الأدب والخيال كأنموذج من أرق النماذج على الوصف الفني الحي المتميز بشيء لم نزل نفتقده في أدبنا، وهو الانصراف عن اللهو والعبث اللفظي والطلاء السطحي، وإيثار التعبير السهل المستقيم الناضح بغنى التجربة وصدق اللهجة الشخصية، مما لا نجده متوافرا عند البلغاء والأدباء المحترفين، ونجده بقوة عند العلماء وفقهاء الدين والمؤرخين وهؤلاء الكتاب الرحالين".[11]

ثانيا: نجد ثراء علميا أدبيا متنوع الحقول لا غنى للباحث في شتى المجالات: الشرعية، والأدبية، والتاريخية، والجغرافيا، وعلم الاجتماع، وغيرها من التخصصات من الرجوع إلى نص الرحلة لاستخراج ما تحويه من فوائد معرفية، ونكت علمية، ودرر أدبية، "فهي منابع ثرية لمختلف العلوم، يمكن أن يقال إنّها بحر من المعارف والاكتشاف وسجل حقيقي لمظاهر الحياة المختلفة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور، بحيث يقدّم فيها الراحل أحوال المجتمعات، وعادات النّاس،

وتقاليدهم، وملابسهم، وأطعمتهم، وأشربتهم وشعائرهم الدينية، بأسلوب أدبي. يقول زكي حسن[1] :الرحلات بمثابة مصادر شاملة سجلت فيها جوانب متعددة فيما يخص الجوانب الحضارية على امتداد أزمنة متتالية، فالرحلة تتطلب اتساع المعارف وتنوعها، لأنها تستخدم الجغرافيا، وتستند إلى التاريخ عند التعرض لوصف المسالك والمدن والمعالم وبدايات الأمور، بل ورصد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة لديهم، وكذلك الاقتصادية، ويتبعها السياسية بنسب متفاوتة وعرض ذلك بزي الأدب وطابعه".[12]

لقد كان طالب العلم في المغرب إذا ما أتم حفظ القرآن الكريم، وأخذ نصيبا من علوم الآلة والدراية، حرص على لقاء الشيوخ والتردد على حلقات العلم، وحينئذ تتوق نفسه لشد الرحال إلى المشرق بنية الحج الديني، والحج العلمي[13]،فيجلس إلى العلماء وشيوخ الرواية والدراية، فيدون ما سمعه ويسجل ما رآه من عادات وتقاليد وغير ذلك (فإذا قلنا إن فنا من فنون القول العربي يعرض في مضمونه إلى ناحية أو إلى أخرى من نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخو الآداب والأديان والأساطير)[14] فالقيمة العلمية للرحلة؛ هي ما سجل فيها من مختلف المعارف، وما دون فيها من مختلف المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية وغير ذلك، متداخلة الأطراف، متشابكة الأفكار، ففيها من كل فن بطرف، وفيها لكل طالب علم ومعرفة، ورواية ودراية، ما يروي به عطشه، كما نجد في هذه الرحلات فكرة دقيقة عن أسماء الأسر المقيمة في الحرمين الشريفين وأسماء العلماء وخطباء الحرمين وأئمتهم، وشيخ زمزم، والمؤذنين والمكبرين، وحتى حاملي الشمع وعبيد الحرم (الأغوات) والبوابين في الحرم المكي والمدني[15]، فإن الباحث يفيد منها أيما إفادة.

القيمة الأدبية للرحلة:

تتجلى القيمة الأدبية في الرحلة؛ في لغتها، وأساليبها البلاغية لتصوير رؤية صاحب الرحلة لما يدور حوله من الأحداث والوقائع، وكشف ما يشاهد من العادات والتقاليد، وترجمة الشيوخ والعلماء الذين التقى بهم أو جلس إليهم. لترتفع بذلك إلى عالم الأدب الراقي، وترقى إلى عالم الخيال الفني.[16]

إن الرحَّالة المغاربة قد تألقوا في كتابة رحلاتهم وتفوقوا في هذا المضمار على إخوانهم المشارقة كما وكيفا، وهكذا توفرت لنا باقة عطرة من الرحلات المغربية المكتوبة، فيها المقتضب وفيها المسهب، وفيها المنثور والمنظوم[17].

وقد تفاوت أسلوب الرحلات بين وصف وسرد قصصي، وهذا ما جعل الدكتور شوقي ضيف يذهب إلى أن الرحلة عند العرب (خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة)[18].

ولعل الروايات التي ترويها الرحلات الحجازية المغربية المكتوبة والحكايات التي يرددها المغاربة منذ أول رحلة حج وإلى يوم الناس هذا، والتي تتصل بمكة المكرمة والمدينة المنور والكعبة المشرفة وزمزم والصفا والمروة، والمشاعر في عرفات ومزدلفة ومنى، تحتاج وحدها إلى تتبع، لأنها أدب ملئ بالعظة والإيمان.[19]

إن الرحلة الحجازية كما يقول الأستاذ الدكتور عبد الله الترغي تحاول أن تسجل ما ينتاب الحاج من شوق وحنين إلى الحج، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وتحتفظ في الأغلب برصد آثار المواجهة الأولى لهذه المعالم عند الحاج، وما تحدثه من انفعال في نفسه، وهو يشاهد المعالم أول مرة، والتعبير عن هذه المواقف هو أمر، لا تكاد تخلو منه مواد رحلة من الرحلات الحجازية، مما يجعله من الثوابت المشتركة، في عمل الرحلة الحجازية التي أنتجها المغاربة، غير أن نسبته تبقى خاضعة لتفاوت القدرات الأدبية عند أصحاب هذه الرحلات.[20]

ولذلك فإن أدب الرحلة يحفل بكثير من "الأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على ما يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي، سلس، مشرق، وهذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي"[21].

ومن نافلة القول إن أدب الرحلة لم يقترن بالسرد فحسب، بل اشتمل على قصائد محبوكة بأسلوب جميل ومنه قول الشاعر أبي علي الحسن اليوسي حين أحس بقرب وصول راحلته إلى طيبة:

جد في سيرها فلست تلام

هذه طيبة وهذا المقام

وهذا آخر يقف على مشارف المدينة المنورة وينشد فرحا بتيسير الله له الوصول إلى وجهته التي كان يمني النفس بها:

هذي معالم طيبة يا ساري

فأرق مآقي طرفك المدرار

قصيدة المديح النبوي:

وعلى إثر الرحلة التي كان المغاربة والأندلسيون على حد سواء يمنون النفس بها، ويتطلعون إليها، ويبذلون في ذلك النفس والنفيس بغية الوصول إلى ذلك المقام المبارك ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات، ويطفئوا لهيب شوقهم بزيارة روضة الرسول صلى الله عليه وسلم، كان منهم من لا يكتفي بهذا، بل لا ينطفئ لهيب شوقه حتى يتمخض عن قصيدة يمدح بها خير الورى صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وسلم.

لقد انطلقت شرارة حب الجناب النبوي وتحبير ذلك التعلق بالمقام النبوي الأسمى والتعبير عن الوجد في جناب الرسول صلى الله عليه وسلم مذ نشأت قصيدة المديح على لسان شعراء الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى رأسهم كعب بن زهير الذي مدح الرسول بقصيدته التي عرفت "بالبردة" ومطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يفد مكبول[22]

وكذا قصيدة الأعشى:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

وعادك ما عاد السليم المسهدا

هاتان القصيدتان تعتبران اللبنة الأولى لهذا الغرض الشعري؛ غرض المديح النبوي، ولكن هناك من الباحثين ومنهم الدكتور زكي مبارك يرى أن الباعث الذي حدا بالشاعرين إلى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن مدحا خالصا، فلقد قال الأول قصيدته يرجو التقرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والظفر بالكسب المادي، وأما الثاني فقد أنشأ قصيدته يلتمس بها حماية الرسول له والدفاع عنه، ومن ثم كانت القصيدتان أقرب إلى شعر التكسب الذي يحفل بالكذب والنفاق والرياء منهما إلى شعر المديح النبوي الذي تمليه العاطفة الصادقة ويصوغه الحب العارم[23].

وهكذا استمر الشعراء من التابعين وتابعي التابعين في مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم حتى نصل إلى القرن السابع الهجري والذي شهد طفرة في هذا الفن، ونضرب موعدا مع الشاعر الذي ذاع صيته في مشارق الأرض ومغاربها بحبه الشديد للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع أهل العلم والأدب أن قصيدته من أروع ما قيل في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وقد كُتب لها من الذيوع والانتشار في جل البلاد الإسلامية مشرقها ومغربها، عربيها وعجميها، ما لم يكتب لغيرها من القصائد الجياد، وشاعرنا هذا الذي ملأ حب النبي قلبه وكيانه هو محمد البوصيري (608 – 697هـ) الذي نظم قصيدة أسماها "البردة" ومطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم

مزجت دمعا جرى من مقلة بدم[24]

وتعد هذه القصيدة من عيون هذا الغرض الشعري، وقد عارضه كثير من الشعراء من بعده من مثل ابن جابر الأندلسي (ت 780 هـ) وحديثا عارضه أحمد شوقي في قصيدته "نهج البردة" ومطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم

أحل سفك دمي في الأشهر الحرم[25]

وفي الأدب المغربي القديم والحديث على حد سواء، الكثير من شعر المديح النبوي لشعراء يند عددهم على الحصر، منهم ابن جبير (540 - 614هـ) وهو صاحب الرحلة المعروفة بـ (رحلة ابن جبير) ومنهم أبو الربيع سليمان الكلاعي البنلسي (ت634هـ) ومنهم ابن خبازة (ت637هـ) ومالك بن المرحل (604 – 699هـ) ومنهم حازم القرطاجني (ت684هـ) ومنهم ابن جابر الأندلسي الضرير (ت780هـ) ومنهم ابن زمرك (ت797هـ) ، وحتى إذا ما ارتحلنا من ذلك العصر ووضعنا عصا الترحال في عصور متأخرة، وضربنا موعدا مع شعراء العهد العلوي نجد الكثير من فطاحل الشعراء الكبار أمثال الحسن اليوسي (1102هـ)، والتستاوتي (1127هـ)، والكنسوسي (1211 – 1294هـ)، وأحمد بن محمد بن العباس، وعبد الرحمن بن محمد الحسني (1290هـ).

لقد كان لهذا الغرض الحيز الأكبر في الأدب المغربي وإلى ذلك يشير المقري في نفحه بأن المغاربة كان (لهم في منازل الأمداح النبوية مقيل وتعريس)[26] ويؤكد ذلك الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي بقوله: (وإذا تركنا المشرق ويممنا الوجه شطر

الغرب الإسلامي (الأندلس والمغرب) طالعنا رصيد ضخم وتراث عظيم خلفه لنا شعراء هذه المنطقة بما أنشأوه من مدح في نبي الإسلام)[27]

مظاهر التعظيم في الرحلة والقصيدة

أولا: تعظيم الرسول ﷺ خلال التعبير عن الشوق والحنين إليه:

فيما صح من الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال:(السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا) قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله قال: (أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد).

من هذا المنطلق كان وما زال المسلمون في شوق لرسولهم صلى الله عليه وسلم يبادلونه الود بالود والشوق بالشوق، وقد تبلور ذلك الود وذلك الشوق في قصائد نسجت ورحلات نهضت قصد الحج وزيارته صلى الله عليه وسلم، وما كان غرض أصحابها إلا إخماد لهيب الشوق الذي يضطرم في صدورهم تجاه نبيهم صلى الله عليه وسلم، بزيارة قبره والوقوف على آثاره ومسجده؛ الذي شرع لنا الإسلام شد الرحال إليه، ولذلك كان الشعراء يعربون عن لوعة الشوق للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ويلهجون بشمائل الرحمة المهداة ومن أولئك الشعراء نجد ابن الجنان الذي زخر ديوانه بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم نسوق من أمثلة ذلك قوله مادحا راجيا شفاعة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم:

صلوا على خير البرية خيما

وأجل من حاز الفخار صميما[28]

صلوا على من شرفت بوجوده

أرجاء مكة زمزما وحطيما

صلوا على أعلى قريش منزلا

بذراه خيمت العلا تخييما

ثم يطلق عنانه لبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم ومقامه السامي بين الأنام بما تجملت به نفسه من كرم فياض وما حمل من معجزات ومناقب:

ذاك الذي حاز المكارم فاغتدت

قد نظمت في سلكه تنظيما

من كان أشجع من أسامة في الوغى

ولدى الندي يحكي الحيا تجسيما

طلق المحيَّا ذو حياء زانه

وسط الندى وزاده تعظيما

حكمت له بالفضل كل حكيمة

في الوحي جاء بها الكتاب حكيما

وبدت شواهد صدقه قد قسمت

بدر الدُّجى لقسيمه تقسيما

والشمس قد وقفت له لما رأت

وجها وسيما للنبي وسيما

كم آيةٍ نطقت تصدق أحمدا

حتى الجماد أجابه تكليما

والجذع حن حنين صبٍّ مغرم

أضحى للوعات الفراق غريما

جلت مناقب خاتم الرسل الذي

بالنور خُتّم والهدى تختيما

وسمت به فوق السماء مراتب

بمنام صدق عز فيه مقيما

ثم ينتقل الشاعر لطلب الشفاعة من الجناب النبوي الكريم:

فله لواء الحمد غير مدافع

وله الشفاعة إذ يكون كليما

نرجوه في يوم الحساب وإنما

نرجو لموقفه العظيم عظيما

ما إنْ لنا إلا وسيلة حبِّه

وتحية تذكو شذا وشميما

ولخير ما أهدى امرؤ لنبيه

أرج الصلاة مع السلام جسيما

يا أيها الراجون منه شفاعة

صلوا عليه وسلموا تسليما

وفي هذا المعنى نجد ابن جبير البلنسي يقول في قصيدته المدحية:

أقول وآنست بالليل نارا

لعل سراج الهدى قد أنارا

وإلا فما بال أفق الدُّجى

كأن سَنا البرق فيه استطارا[29]

ويقول الإمام اليوسي:

مت هنا لوعة وشوقا ووجدا

وغراما فما عليك ملام

ويقول الشاعر عبد الحي الكتاني في قصيدة السلام عليك يا علم الهدى:

إني وحقك للجناب لشيق

شوق الضنينة للوحيد المفرد

مني إليك حنين وجد مثل ما

قد حن جذع من نخيل مبعد[30]

ومن ذلك ما نجده في شعر أبي الوليد إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر الغرناطي الأندلسي:

إليك رسول الله ما زلت شائقا

أحنُّ فتهمي من دموعي غزارها

وأهفو لذكراك الكريم محبة

فيُخلعُ من نفس الغرام عذارها[31]

وفي قصيدة أخرى يعبر عن شوقه إلى حبيبه المصطفى:

إليك رسول الله نيران لوعتي

فها هو شوقي الخارجي شبيبها

يحن إلى مثواك قلبي علاقة

إذا ما نداد العيس لبَّ لبيبها

ويرسل في الكفّ الخضيب مدامعا

يشيب بحنّاء النجيع خضيبها

هي النفس في آمال زورك سؤلها

ورغبتها في أن يتاح رغيبها

وللقلب تقليب على نار شوقه

فتهتاج وقداً هيل منها قليبها[32]

ولعل الزائر إذا وصل المدينة المنورة، أول ما يفعله من أفعال العبادة والمناسك يقصد زيارة المسجد النبوي والروضة الشريفة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فمثلا نقرأ لمحمد الزمزمي:(ولما دخلنا المدينة المنورة قصدنا الحرم الشريف، فصلينا تحية المسجد بالروضة المطهرة، ومنها قصدنا المواجهة النبوية، فزرنا أولا الحضرة النبوية وجددنا بها إيماننا، وأبلغناها ما كابدناه دون الوصول إليها من ألم الأشواق، ولواعج المحبة في التلاق)[33].

تعظيم الرسول ﷺ خلال تعظيم مكة المكرمة والمدينة المنورة:

لما كانت محبة الرسول صلى الله عليه وسلم في بها القلوب متعلقة، وجدنا المسلمين تهفو أرواحهم لزيارة حبيبهم المصطفى صلى الله عليه وسلم والوقوف على آثاره في المدينتين المقدستين مكة وطيبة، فمنذ وفودهم إلى مكة المكرمة لقضاء مناسك الحج يزورون مولده صلى الله عليه وسلم، ويصفونه بوجه الدقة المتناهية، يقول ابن جبير في رحلته:(وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبي، صلى الله عليه وسلم)[34] ثم يصفه وصفا دقيقا ويحليه (بالمكان المقدس الذي هو مسقط لأكرم مولود على الأرض وممس لأطهر سلالة وأشرفها، صلى الله عليه وسلم)[35]

وحين يصل المدينة المنورة يصفها بقوله:(فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء، والتربة البيضاء، والبقعة المشرفة بمحمد سيد الأنبياء، صلى الله عليه وسلم صلاة تتصل مع الأحيان والآناء)[36]

وفي النظم نجد اليوسي يحث السير إلى طيبة ويذكر بعضا من محاسنها يقول:

جد في سيرها فلست تلام

هذه طيبة وهذا المقام

حرم حله نبي كريم

وإمام بجنبه وإمام

وجلال وهيبة ووقار

وبهاء ورفعة واحترام

وإذا ما تراءت لهم معالم طيبة، تفتقت قرائح الشعراء، فمثلا نجد الشاعر محمد المرابط ينشئ قصيدة طويلة يقول في مطلعها:

هذي معالم طيبة يا ساري

فأرق ماقي طرفك المدرار

فرحا بمشهد خير من وطأ الثرى

وسمت به سرورا آل نزار

وقد نقل الفقيه القاضي أو جعفر الرعيني الذي نقل عنه ابن الخطيب قوله:

طابت بطيبة أرواح معطرة

بها فأصبح أفق الشوق عطارا

كأنما فلق الإصباح حين بدا

خد وبهجة حسن الشمس قد وارى[37]

وفي قصيدة ابن جبير المذكورة آنفا يحث راحلته على الإسراع وقد أنهكها طول الرحلة، إلا أن المطلوب يبذل فيه النفس والنفيس لذلك فإن النفس قد استشعرت "بأن الحبيب قد تدانى مزارا" فبدا "بشائر صبح السرى":

وكانت رواحلنا تشتكي

وجاها فقد سابقتنا ابتدارا

وكنا شكونا عناء السرى

فعدنا نباري سراع المهارا

أظن النفوس قد استشعرت

بلوغ هوى تخذته شعارا

بشائر صبح السرى آذنت

بأن الحبيب تدانى مزارا

جرى ذكر طيبة ما بيننا

فلا قلب في الركب إلا وطارا

حنينا إلى أحمد المصطفى

وشوقا يهيج الضلوع استعارا

ولا لنا أحد مشرقا

بنور من الشهداء استنارا

فمن أجل ذلك ظل الدجى

يحل عقود النجوم انتثارا

ومن ذلك الترب طار النسيم

نشرا وعم الجهات انتشارا

ومن طرب الركب حث الخطى

إليها ونادى البدار البدارا

ولما حللنا فناء الرسول

نزلنا بأكرم خلق جوار

تعظيم الرسول ﷺ في منادته:

لقد سجل لنا هؤلاء الرحالة المغاربة ما وقر في صدورهم تجاه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من التعظيم، وسطروا لنا ذلك بما جادت به قرائحهم، نظما ونثرا، فوصفوه صلى الله عليه وسلم بأجمل الصفات، ونادوه بنداء التعظيم والتكريم فهذا القاضي عياض يبدأ أبياته في إحدى قصائده بكلمة "يا سيدي" يقول:

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي

فحوض فضلك مورود لكل ظم

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي

فالعبد ضيف وضيف الله لا يضم

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي

يا من لقاصده أمن من النقم

يا سيدي يا رسول الله يا من ضيف ساحته

يبيت في الأمن في خير وفي نعم

وهذا اليوسي ينادي الرسول ويصفه بصفات تدل على علو مكانته صلى الله عليه وسلم في قلبه:

يا نجي الإله في حضرة القد

س كريما له هناك يقام

أنت نور العيون أنت الأماني

أنت روح القلوب أنت المرام

أنت يا أكرم النبيين بحـر

سبح الكل في نداك وعاموا

تعظيم الرسول ﷺ ذكر آل بيته:

ومن مظاهر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر آل بيته بما يناسب المقام الذي أنزلهم الله سبحانه وتعالى فيه في قوله:

﴿يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[38] لذلك حرص شعراء المديح على ذكر زوجات وبنات النبي رضوان الله عليهم ومنه قول البوصيري:

ريْحانَتاه على زَهْرِ الرُّبـا

رَيْحانَتاهُ مِنَ الزَّهْراءِ فاطِمَةٍ

خَيرِ النِّسَاءِ وَمِنْ صِنْوِ الإمامِ علي

إذا امْتَدَحْتُ نَسِيباً مِنْ سُلاَلَتِهِ

تعظيم الرسول ﷺ في ختم القصيدة بالصلاة عليه:

لقد كان من عادة الناظم في المدح النبوي أن يختم أبياته دون الالتفات إلى طول القصيدة أو قصرها أن يختمها بذكر الصلاة على النبي وعلى آله وأصحابه، فمثلا؛ نجد عند السيد أحمد بن الحاج العياشي سكيرج في معشراته: "ضوء الظلام في مدح خير الأنام" وهي معشرات على حروف المعجم في مدح سيد الكائنات، نجد في نهاية كل مقطع صلاة على النبي وآله وأصحابه:

عليك صلاة مع سلام مؤبد

مع الآل والأصحاب ليس له انتها

وفي الثاني:

عليه مع الآل الكرام وصحبه

صلاة وتسليما يدوما ثناء

وهذا محمد بن الطيب العلمي يختم قصيدته بقوله:

تحية الله والصلاة على

خير الورى راكب النجب

وأهل بيت الرسول كلهم

وآله والصحابة النخب

ونجد عند اليوسي حين انتهى من قصيدته يقول:

يا إله السماء صل عليه

كلما دام للزمان دوام

وعلى آله أجل البرايا

وعلى صحبه الجميع السلام

خاتمة:

وصفوة القول، فما عرضناه لا يمثل سوى نغبة من بحر إسهام الرحلة المغربية الأندلسية في تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم، وما حبره الرحالة الأدباء والعلماء من قصائد مدحية في خير البرية.

لقد كانت "الرحلات مصدرا فريدا لكثير من النصوص الأدبية شعرا كانت أم نثرا لانفرادها برواية الكثير من النصوص، فالرحالة حرصوا على أن تضم رحلاتهم النوادر، فأدرجوا فيها كثيرا من قصائدهم الشعرية ورسائلهم النثرية مما له ارتباط بظروف الرحلة، وهذا الأمر جعل الرحلات، ذات أهمية أدبية خاصة، فأكثر الرحالة لم تعرف لهم أشعار أو كتابات إلا من خلال ما دونوه في رحلاتهم، لذا عدت بمثابة دواوين لأصحابها، ومجموعات ضمت ألوانا من إنتاج عصرهم وأدبائه".[39]

وعودا على بدء، إن القيمة الفعلية للرحلة ماضيا وحاضرا، تبرز في جانبين:

الأول: اكتشاف للذات وللآخر، وانفتاح المجتمعات على بعضها، وذلك لا يتأتى إلا بفعل الترحال والانتقال من مكان إلى آخر، وهو تحقيق لإرادة الله سبحانه وتعالى في خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[40]

لذلك "نقرأ للمفكر مراد وهبة ملاحظة هامة تؤكد لنا مرة أخرى الصلة الوثيقة بين الرحلة وتاريخية الحضارة الإنسانية، وحركة كشف الإنسان لذاته وغيره، والانتقال إلى مرحلة الكشف الكوني في عالم المستقبل: (وفي تقديري أن الحضارة الإنسانية واحدة وإن تعددت مستوياتها، وقد كان مسار الإنسانية يذهب دائما في اتجاه مجاوزة الواقع بداية من عصر الأسطورة إلى عصر العقل الذي شهد أبرز تجلياته مع تطور العلم، وكان الهدف دائما أن يحقق الإنسان وحدته مع الكون، مع الطبيعة، ولكن على أساس قوانين علمية، في حين أن انشغال الإنسانية كان دائما بعلاقة الإنسان بالإنسان)[41].

ثانيا: تكمن القيمة الفعلية للرحلة في حفظها للأجيال القادمة مادة وفيرة متنوعة المشارب، ففي أدب الرحلات من كل فن بطرف، بما تضمنته من حقائق تاريخية واجتماعية وجغرافية واقتصادية ووصف البلدان والأقطار والأقاليم، والمناخ والظواهر الطبيعية، إلى تراجم السلاطين والفقهاء والأدباء والتجار وغيرهم من شرائح المجتمع، ناهيك عما تحمله من أسلوب السرد القصصي الماتع وخاصة إذا كان كاتب الرحلة من الأدباء الذين لا يشق لهم غبار.

وأخيرا، لقد حرص السلاطين المغاربة على مر التاريخ أن يرسلوا مع الركب المغربي المتوجه إلى الديار المقدسة عطاءات وهدايا رفيعة يخصون بها ذلك المقام السامي، يذكر ذلك المؤرخ الأستاذ محمد المنوني فيقول: "تقاليد ركب الحجيج المغربي أن يحمل معه هدايا للحرمين الشريفين تتكون من مصاحف وكتب قيمة، وجواهر فاخرة، كما أن بعض الملوك المغاربة يضيفون لتلك الهدايا المتنوعة رسائل يهدونها لروح الرسول صلى الله عليه وسلم، يؤكدون فيها ولاءهم وإخلاصهم

للجناب النبوي، ويتضرعون إلى الله في حل أزماتهم"[42]وكل تلك العطاءات المغربية التي كان المغاربة ملوكا وشعوبا يحرصون على إرسالها إلى تلك البقاع المقدسة مسجل بدقة في تلك الرحلات الحجازية.

وكتبه

براء بن حسن الوراكلي

تطوان في صبيحة يوم الأربعاء

الثالث من شهر صفر الخير لعام ألف وأربعمائة وثالثة وثلاثين للهجرة

الموافق للثامن والعشرين من ديسمبر لعام ألفين وإحدى عشر للميلاد

الهوامش:

1- الأنعام: 11

2- التوبة: 122

3- مختصر المقاصد الحسنة في بيان الأحاديث المشتهرة على الألسن، تأليف: محمد بن عبد الباقي الزرقاني الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت 1403هـ و: التنكيت والإفادة في تخريج أحاديث خاتمة سفر السعادة المؤلف: محمد بن حسن بن همات الدمشقي المحقق :أحمد البزرة الناشر :دار المأمون للتراث – دمشق الطبعة :الأولى سنة الطبع1407

4- النمل: 35

5- الحج: 27

6- انظر: رحلة الرحلات, مكة في مائة رحلة مغربية ورحله, التازي ص19.

7- انظر كتاب: شذرات تطوانية للأستاذ الدكتور حسن الوراكلي، منشورات تطاون أسمير، 2002م.

8- معجم مقاييس اللغة مادة: رحل.

9- لسان العرب مادة: رحل.

10- القاموس المحيط مادة: رحل.

11- أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، ص 5-6 ، منشورات دار الشرق الجديد- بيروت، ط1، 1962م

12- نواب، د. عواطف بنت محمد يوسف، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، ص 20، دارة الملك عبد العزيز- الرياض، 2008م

13- انظر مقال "بين عتبة العلم والعبادة" للدكتور عبد المنعم الوكيلي

14- الدكتور حسني محمود حسن, أدب الرحلات، ص 6

15- انظر رحلة الرحلات, مكة في مائة رحلة ورحلة للدكتور عبد الهادي التازي

16- نفسه، ص 9 بتصرف

17- نفسه، ص16

18- شوقي ضيف، الرحلات (فنون الأدب العربي)، طبعة دار المعارف:6

19- انظر رحلة الرحلات ص 16

20- انظر الفصل الأول التعريف والعرض في كتاب"حركة كتابة الرحلة واتجاهاتها في المغرب على عهد العلويين" الدكتور عبد الله المرابط الترغي.

21- سيد حامد النساخ، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، ص 8

22- انظر القصيدة كاملة في ديوان كعب بن زهير، ص 6.

23- نظرات في الأدب المغربي الحديث, الدكتور حسن الوراكلي ص9

24- انظر ديوان البوصيري ص 238

25- انظر الشوقيات، ج1 ص 190

26- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري، الجزء 7 ص 438، تحقيق إحسان عباس.

27- نظرات في الأدب المغربي الحديث، حسن الوراكلي ص 12

28- ديوان ابن الجنان، ص 80-96.

29- الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب المجلد الثاني ص 235

30- موقع "معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين".

31- نثير فرائد الزمان في نظم فحول الزمان، ص 209 210

32- نفسه، ص214

33- عقد الزمرد:116/1

34- رحلة ابن جبير, ص 121

35- نفسه, ص 121

36- نفسه, ص143

37- الإحاطة ج2 ص 567.

38- الأحزاب الآية 32.

39- نواب، د. عواطف بنت محمد يوسف، كتب الرحلات، ص 18-19.

40- الحجرات الآية: 13.

41- أدب الرحلات، د. حسين محمد فهيم ص 226.

42- ركب الحاج المغربي, محمد المنوني ص25.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- أدب الرحلة، الدكتور حسني محمود حسن، ط الثانية 1983/1403 دار الأندلس، لبنان.

3- أدب الرحلات، د. حسين محمد فهيم، عالم المعرفة يونيو 1989

4- الإحاطة في أخبار غرناطة لذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه: محمد عبد الله عنان، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة ط:1 1393هـ.

5- نظرات في الأدب المغربي الحديث، الدكتور حسن الوراكلي منشورات عكاظ.1990.

6- كتب الرحلات في المغرب الأقصى، د. عواطف بنت محمد يوسف، دارة الملك عبد العزيز- الرياض، 2008م

7- حركة كتابة الرحلة واتجاهاتها في المغرب على عهد العلويين تأليف: الدكتور عبد الله المرابط الترغي

8- ديوان البوصيري الطبعة الأولى 1955.

9- ديوان ابن الجنان الأنصاري شاعر المديح النبوي في الأندلس، جمع وتحقيق ودراسة: د. منجد مصطفى بهجت

10- ديوان كعب بن زهير.

11- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري، الجزء 7 تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.

12- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لأبي الوليد إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر الغرناطي الأندلسي، حققه وقدم له: د. محمد رضوان الداية. عالم الكتب، بيروت. ط1 1406هـ

13- ركب الحاج المغربي، لمحمد المنوني مطبعة تطوان، ط 1953

14- رحلة ابن جبير، دار الشرق العربي، حلب، سوريا.

15- رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط 1425هـ.

16- الرحلات(فنون الأدب العربي)، شوقي ضيف، طبعة دار المعارف.

17- شذرات تطوانية، للأستاذ حسن الوراكلي، الطبعة الأولى 2002م، منشورات تطاون أسمير.

18- معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

19- سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب للطباعة – القاهرة.

20- القاموس المحيط للفيروز آبادي.

21- لسان العرب لابن منظور.

22- مقال "بين عتبة العلم والعبادة" للدكتور عبد المنعم الوكيلي

23- موقع: معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، على الشبكة العنكبوتية.